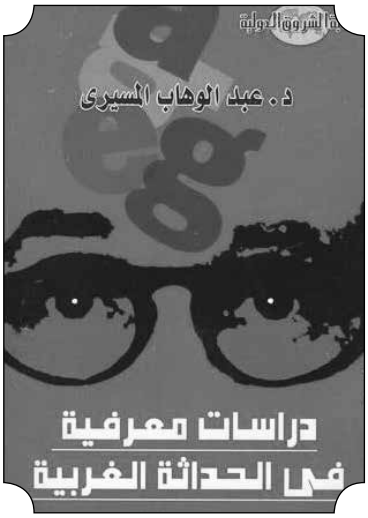

دراسات معرفيَّة في الحداثة الغربيَّة

تأليف: عبد الوهاب المسيري
منشورات: مكتبة الشروق الدولية

مُراجعة: رشا حسين الحاج *

تناول المسيري في هذا الكتاب الّذي صدر في العام 2006م المفاهيم المحوريَّة في الحضارة الغربيَّة الّتي فصلت كلّ القيم الدينيَّة عن مجُمل حياة الانسان. ومن خلال تأثُّر تلك الحضارة بالمفاهيم الداروينيّة أصبحت الحداثة الغربيَّة هي الداروينيّة المبنيّة على الصّراع، والتّنافس، والتّقاتل. ويشرح المسيري في فصول الكتاب كيف بدأت الحضارة الغربيَّة بالتّمركز حول الإنسان ثمّ حول الطّبيعة، وانتهت حيث لا إنسان، ولا ذات، ولا طبيعة.

لقد انتقد المنظومة العلمانيَّة الإمبرياليَّة الَّتي تُشوّه الهُويّات الثّقافيّة وتفرغها من أيِّ مضمونٍ إنسانيٍّ. وأن الغرب يحسب رؤيته المادّيّة في مجال العلوم الإنسانيَّة

* ماستر تاريخ، الجامعة اللُّبنانيَّة

رؤيةً عالميَّةً وصالحة لكلّ زمان ومكان، وأنّ الحداثة المنفصلة عن القيمة أفضت إلى حالة من الخواء الرُّوحيّ وأصبح الإنسان في ظلِّ الحداثة الغربيَّة يتيمًا فلم يعد لديه مرجعيَّة دينيَّة، أو اجتماعيَّة، أو أُسريَّة.

لقد تبنّى المسيري في فصول كتابه هذا وفي معرض تحليله لما سبق من أفكار وأطروحات حول الحداثة الغربيَّة وما أدَّت إليه من خواء إنسانيّ، الأنموذج المركّب بوصفه أداةً تحليليّةً، فبدأ بدراسة تفاصيل الظّاهرة الحضاريّة المركّبة ـ الحضارة الغربيَّة الحديثة ـ وجرد منها أنموذجًا تحليليًّا، ومِنْ ثَمَّ، رجع إلى الظّاهرة لمحاولة تفسيرها بكلّيتها في ضوء الأنموذج الّذي جرّده، مُتأثّرًا بفكر عالم الاجتماع الألمانيّ ماكس فيبر، وآخذًا في الحسبان أنَّ النّتائج تكون في معظمها احتماليّة بسبب طبيعة الظّاهرة.

بيّن المسيري في الفصل الأوّل الحداثة المنفصلة عن القيمة وتفكيك الإنسان، المفاهيم المحوريَّة في الحضارة الغربيَّة الحديثة الّتي تقوم على فصل كلّ القيم الدينيّة والإنسانيَّة عن مجمل حياة الإنسان، العامّة والخاصّة؛ أما العلمانيَّة الجزئيَّة فهي فصل الدين عن الدّولة.

بيّن أنَّ مفهوم الطّبيعة، في تصوُّر المادّيِّين، هو نظام ضروريٌّ كلّيّ شامل، مركزه وقوّة دفعه كامن فيه، يتحرّك بلا هدف، أو غاية، تنضوي تحته كلّ الأشياء، ولا يمكن لأيّ من المخلوقات تجاوزه. ولقد ارتبطت الطّبيعة بالدّارونيّة الاجتماعيَّة، الاتّجاه الفكريّ الّذي عبّر عن هيمنة أنموذج الواحديّة المادّيّة، فأصبحت الحداثة الغربيَّة بتعبيره هي الدّارونيّة المبنيّة على الصِّراع والتّنافس والتّقاتل والاستهلاك المتصاعد، جوهرها أنَّ الأقوى وحده قادر على البقاء من خلال توظيف العالم بوصفه مادّةً استعماليّة، لا قداسة لها، لحسابه، مُتبلورًا بالتوسُّع الرأسماليّ الإمبرياليّ.

أشار إلى سمات الإنسان الطّبيعيّ، بوصفه مجموعةً من الوظائف البيولوجيَّة والحقائق المادّيّة، فهو أُحادي البُعد، يخضع للقواعد الحتميَّة للطّبيعة، ويمكن تفسيره من خلال مقولات مادّيّة محضة، أو اختزاله إلى الصّيغ الكمّيّة والرياضيّة المستخدمة في العلوم الطبيعيّة. وهو إمّا إنسان آدم سميث الّذي تحرّكه الدّوافع الاقتصاديّة والرّغبة في تحقيق الربح والثّروة، وإنسان ماركس المحكوم بعلاقات الإنتاج، وإمّا إنسان فرويد الذي تُحرّكه الدَّوافع الجنسيَّة.

ذكر أنّ الحضارة الغربيَّة بدأت بالتمركز حول الإنسان، ثمَّ انتقلت إلى التمركز حول الطّبيعة (المادَّة) والعداء للإنسان، وانتهت بفقدان المركز تمامًا والسُّيولة الشّاملة، حيث لا إنسان، ولا طبيعة، ولا ذات، ولا موضوع. فتناول مصطلح «الاستنارة المضيئة»، أو «العقلانيَّة المادّيّة»، الذي يشير إلى أنَّ عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كلّ شيء ويعمق من مفهومه للواقع ولذاته ويمكّنه من توليد منظومات أخلاقية؛ بل وتضفي عليه المركزيّة في الكون. وهناك «الاستنارة المظلمة» التي تُشير إلى الجوانب التفكيكيّة في الرُّؤية العقلانيّة المادّيّة، فتفكّك الإنسان ولا تمنحه أيّ مركزيّة، أو مكانة خاصّة على الكائنات الأخرى. فهي هرمينوطيقا الشّكّ تنفي الذّات والموضوع، وتبيّن أنّ العقلانيّة المادّيّة تؤدّي في نهاية الأمر إلى اللّاعقلانيّة المادّيّة.

يكمن الفرق بين دعاة الاستنارة المضيئة ودعاة الاستنارة المظلمة، ليس في وصفهم للطّبيعة البشريّة؛ وإنّما في طبيعة النّتائج التي يتوصّلون إليها انطلاقًا من هذه المقدمات. فالتّقدميُّون، أمثال: ماركس، ودوركهايم، يرون إمكانيَّة التَّصدِّي للظلمة من خلال آليّات، مثل: الثّورة الاجتماعيّة. والمأساويّون، أمثال: جورج زيميل، وماكس فيبر، يرون أنّ تزايد هيمنة الإنسان على الطّبيعة مع تزايد الاستنارة ستودّي بالإنسان وتدخله القفص الحديديّ. والعدميّون البرجماتيّون يرون أنّه لا جدوى من الحرب ضدّ الظّلمة، ولا بُدّ من تقبّلها والتَّكيُّف معها.

قسّم المسيري في الفصل الثاني بعنوان: الأنموذج المعرفيّ والحضاريّ الغربيّ الحديث، تاريخ الحضارة الغربيَّة الحديثة إلى مرحلتين: التّحديث والحداثة حتى العام 1965م، وما بعد الحداثة ـ بعد العام 1965م. وقام بعرض سمات كلّ مرحلة من خلال مجالات مختلفة، مُعتقدًا أنّ التَّحوُّلات حدثت بشكلٍ مُتزامنٍ في جميع المجالات.

فبدأ بالمجال الاقتصاديّ، وأشار إلى أنّ هدف المجتمع تحوّل من الزيادة المطَّردة للإنتاج إلى الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك. ثمّ انتقل إلى المجالين: السّياسيّ، والاجتماعيّ، وبيّن أنّه بعد أن كان للدولة القوميَّة حضور وهيمنة، ظهرت هناك مراكز قوى أخرى كالنّقابات وجماعات ضغط، وشركات ضخمة، ومنظّمات غير حكوميّة، فأصبحت السُّلطة موزّعة بين عدّة مؤسّسات. وأشار، في المجال الدّوليّ، أنَّ الدول المستعمرة السّابقة تحاول في الزمن الحاضر استغلال الموارد

الطّبيعيّة والبشريّة على المستوى العالميّ ولكن من دون مواجهات عسكريّة؛ بل من خلال تجنيد النّخب المحلّيّة لتنفيذ مُخطّطاتهم الغربيَّة.

ذكر المسيري، في المجال الفلسفيّ، أنّ النّسبيّة المطلقة تؤدّي إلى الدّارونيّة، فعندما يصبح كلّ فرد، أو شعب هو مرجعيَّة ذاته، يستحيل حسم الصِّراعات إلّا من خلال القوّة. وعليه، يصبح جوهر العلاقات الاجتماعيَّة هو الصّراع. وحين تكتسب الحركة المادّيّة مركزيّة كاملة، يُنظر إلى كلّ شيء على أنّه سقط في قبضة الصَّيرورة، فتغيب المنظومات الكلّيّة، ويختفي البحث عن الأصول والمعنى، وتظهر السُّيولة والتفكيكيَّة. ومِنْ ثَمَّ، تحدّث عن المنظومات الأخلاقيّة، وأسلوب الحياة، والمنظومة الدّلاليّة الجماليّة، والصور المجازيّة، والرموز في كلّ من المرحلتين للحضارة الغربيَّة الحديثة، المنفصلة عن القيمة، ذات النّسبيّة المطلقة.

كما اعتقد أنّ أنموذجه التّفسيريّ مكّنه من الإحاطة بتناقض الحضارة الغربيَّة التي كانت عقلانيّة مادّيّة وأصبحت لا عقلانيّة مادّيّة. فبرأيه أنّ السُّيولة الفلسفيّة كانت في حالة كمون في مادّيّة المشروع التّحديثيّ وتفكيكيّته، وبدأت بالتّحقُّق في نهايات القرن التّاسع عشر.

نوَّه بأنّ العالم يتحرّك فيه البشر في إطار حتميّات مادّيّة، تعفيهم عن مسؤوليّة الاختيار، وأنّ منتجات الحضارة الغربيَّة الحديثة، في مرحلة السّيولة، معادية لكل الحضارات بما في ذلك الحضارة الغربيَّة ذاتها.

أشار المسيري في الفصل الثالث بعنوان: ماكس فيبر والحداثة، إلى الآراء الفكريّة لماكس فيبر، الّذي قام بتطوير نماذج تحليليّة مركّبة، مثل: أنموذج الترشيد، لفهم المجتمع الغربيّ الحديث، وتفسير الظَّواهر، كالرأسماليّة. وذكر نوعين من التّرشيد: رشيد في علاقته بالقيم ـ التّرشيد التقليديّ، ورشيد في علاقاته بالأدوات ـ التّرشيد الأداتيّ، المتحرّر من القيمة، الذي يدعي أنّ الطّبيعة (المادّة) هي المرجعيّة النهائيّة له.

ميّز فيبر بين المجتمعات الرأسمالية التقليديّة والمجتمعات الرأسماليّة الحديثة، آخذًا في الحِسبان، تداخل العناصر الاقتصاديَّة مع العناصر غير الاقتصاديَّة. فرأى الرّأسماليَّة في المجتمع التّقليديّ هي محاولة لمراكمة الثّروات لا عبر الإنتاج والاستثمار المُنظّم؛ بل من خلال، مثلًا، الدُّخول في مشاريع استعماريّة استيطانيّة. أما الرأسماليّة الحديثة، أو الرأسماليّة الرّشيدة، فمركزها المصنع وصُلب المجتمع،

ونشاطها الاتجار المستمرّ في السّوق الذي تتمّ فيه عمليَّة التّبادل بحرّيّة ـ نقود نظير سلع، أو عمالة نظير نقود. واعتقد أنَّ هناك علاقة بين البروتستانتيَّة والرّأسماليَّة الرَّشيدة والعلمانيَّة (الشّاملة). فالبروتستانتيَّة كان لها أثر على عقليَّة مجموعة من رجال غرب أوروبا، كرّسوا حياتهم للعمل في المهن التّجاريَّة وراكموا الثّروات. ثمّ تحوّل المبدأ الواحد المقدّس إلى المبدأ الواحد المادّيّ، فكمنت الرُّؤية العلمانيَّة الإمبرياليَّة وراء الرُّؤية الرأسماليَّة الرَّشيدة.

تطرّق إلى أطروحة ماكس فيبر وبيتر برجر، الحلوليّة والتوحيد والعلمنة الشّاملة: حالة اليهوديّة. وبيّن أنّ من القضايا الأساسيّة التي أُثيرت في علم الاجتماع الغربيّ قضيّة علاقة التّوحيد والتّجاوز والعلمنة الشاملة. فبعض المفكّرين يعتقدون أنّ التّوحيد هو الذي يؤدّي إلى العلمنة، من خلال أولًا مرحلة ترشيد العالم في إطار المُطلق المُتجاوز للطّبيعة (المادّة)، ومِنْ ثَمَّ، مرحلة ترشيد العالم في إطار الواحديّة المادّيّة. واعتقد أنَّ العلمانيَّة منظومةً كامنةً في الحلوليّة الكمونيّة وليست في التَّوحيد. وأنّ الحضارة الغربيَّة يجب وضعها في السّياق الحلوليّ الكمونيّ الواحديّ، وأنَّ الانتماء المسيحيّ، أو اليهوديّ مسألة ثانويّة هامشيّة، لا تصلح للتَّصنيف والتّفسير.

تناول المسيري في الفصل الرابع الحضارة الغربيَّة الحديثة: حوار مع مُؤرّخ أمريكيّ، ويرى أنّ نقطة قصور منطق العلم في ذاته هو انفصاله عن الإطارين: الأخلاقي والإنسانيّ. فيؤكد أنّ العلم الغربيّ يحتاج إلى نسق أخلاقيٍّ مستقلٍّ عنه ليكمله وليفرض عليه حدودًا. ويتساءل: كيف يمكن إعادة توجيه العلم؛ بحيث يركّز على الكلّ بدلاً من الجزء، وعلى الاتّزان الذي يخدم صالح الإنسان في الأرض بدلًا من التَّراكم الكمّيّ دون هدف واضح؟

يشير المسيري إلى أنّ انفصال الإنسان عن الطّبيعة قد يفجر طاقاته الإبداعيّة، ولكن تلك الطّاقة إن لم يحدّها حدود تتحوّل إلى طاقةٍ تدميريّةٍ. ويذكر أنّ هناك تناقضات حادّة في الفلسفات البورجوازيّة، فهي تدافع عن الحريّة الفرديّة، وفي الوقت نفسه، تخضع للحتميَّة المطلقة.

اعتقد المسيري أنّ الانفصال عن القيمة أدَّى إلى ظهور ما يُسمّى «أخلاق الصَّيرورة» في الخطاب السِّياسيّ الغربيّ، بوصفها مجموعةً من الإجراءات الّتي يتّفق عليها أعضاء مجتمع ما، لا مجموعة من المبادئ الأخلاقيَّة المتجاوزة لرغبات الفرد. وتعود أخلاق الصّيرورة، إلى فلسفة ميكافيلي، الفيلسوف العلمانيّ الإيطاليّ،

الذي رأى أنَّ من يفعل خيرًا سيعود عليه بالوبال وسيورده موارد التّهلكة، أمّا من يتبع الشّرّ، ويجيد استخدام وسائله فسيكون من النّاجحين.

يرى المسيري أنّ التغير بوصفه مطلقًا يؤدّي إلى غياب المعايير فتصبح كلّ الأمور نسبيّة. وإنكار وجود طبيعة بشريّة ثابتة، مثل: نقطة ارتكاز فلسفيّة ثابتة ينبع منها نسق أخلاقيّ، هو محاولة الهرب من الإيمان بما وراء المادّة، وكذلك الهرب من فكرة الأخلاق.

في الفصل الخامس الأنموذج الحضاريّ الغربيّ والحياة اليوميَّة، رأى المسيري أنّ أهمّ القضايا الّتي تواجهها الديمقراطيّة في التّطبيق هي مشكلة المرجعيَّة النهائيَّة؛ أي مجموعة القيم الّتي تحكم إجراءاتها. وأنّ القيم الإنسانيَّة العامّة المُتمثّلة بالمواثيق والأعراف الدّوليّة المختلفة يجب أن تكون مرجعيّة النُّظُم الديمقراطيّة.

ألقى المسيري الضوء على العنصريَّة الغربيَّة، الّتي شأنها شأن الظّواهر العلمانيَّة الشّاملة تمرُّ بمرحلتين: مرحلة التّحديث المنفصل عن القيمة، ومرحلة ما بعد الحداثة والسُّيولة الشّاملة. وهي موجَّهة نحو العنصر الإنسانيّ نفسه، فيصبح البشر وحدات ماديّة إنتاجيّة استهلاكيّة خاضعة لقانون ماديٍّ عام. ورأى أنّ المنظومة العلمانيَّة الإمبرياليَّة تُشوّه الهُويَّات الثَّقافيَّة وتفرّغها من أيّ مضمون إنسانيٍّ مركّب حقيقيّ، وتسعى إلى المزيد من العلمنة البِنْيويَّة وتفكيك الإنسان. وعَدَّ الصّهيونيَّة والنَّازيَّة تعبيرًا عن الحداثة المنفصلة عن القيمة ـ الحداثة الدَّارونيَّة.

نوَّه بأنَّ الغرب يحسب رؤيته المادِّيَّة، في مجال العلوم الإنسانيَّة، رؤيةً عالميَّةً وصالحةً في كلّ زمان ومكان، ولكنّها في الحقيقة مُتمركزة حول الذّات الغربيَّة. وذكر أنَّ ماركس وإنجلز جعلا من التَّاريخ الغربيّ الأنموذج الَّذي يجب أن يُحتذى به، ومن الاستعمار الغربيّ الآليَّة الأساسيَّة للتَّحديث.

أشار إلى تبدّيات الحداثة المنفصلة عن القيمة في الموضة والوجبات السّريعة والمعايير الرياضيّة للجسد والقيم الجماليّة وأفلام هوليود. فتلك الحداثة، التي تحسب العالم ذرَّات مُبعثرة مُتناثرة لا قداسة فيه، بدأت تُهيمن على الحياة اليوميَّة.

رأى أنَّ النّزعة الشّيطانيَّة تُعبّر عن نفسها من خلال أفكار بسيطة تتغلغل إلى حياتنا. فقد أصبح بمنظورنا أنَّ الهدف من الحياة هو البحث عن اللَّذّة وتعظيم الفائدة. واعتقاد أنَّ كلَّ شيء يتغيَّر حتّى المعايير، ولا يوجد مُطلقات معرفيَّة، أو أخلاقيَّة والعالم لا مركز له، وأفضى إلى حالة من الخواء الرُّوحيّ. ومع تآكل الأسرة

في ظلِّ الحداثة الغربيَّة أصبح الإنسان يتيمًا بشكلٍ حرفيّ، فلم يعد لديه مرجعيَّة دينيَّة، أو اجتماعيَّة، أو أُسريَّة. هذا اليُتم أدَّى إلى ظهور دياناتٍ جديدةٍ لملْء الفراغ. فكلّما تصاعدات مُعدّلات التّحديث والعلمنة، تزايدت العبادات والدّيانات الجديدة ذات طقوس بدائيَّة وثنيَّة لاعقلانيَّة.

اعتقد أنّ الترانسفير (transfer)؛ أي طرد عنصر سكّانيّ من محلٍّ إقامته وإعادة توطينه في مكان آخر، ليس مجرّد فعل سياسيّ؛ إنما أمر جوهريّ وبِنْيويّ في الحضارة الغربيَّة الحديثة. وفي سياق حديثه عن الترانسفير المعرفيّ الابستمولوجيّ، يُعرّف الترانسفير بأنّه أوّلًا هيمنة المرجعيَّة المادِّيَّة، ثمَّ اختفاء المرجعيَّة والمركز اللّذان يؤدِّيان إلى الإيمان بالضَّرورة المنفصلة عن القيمة، وبأنّ الثّبات الوحيد هو التَّغيُّر.

تطرَّق المسيري في الملحق بعنوان: علاقة الأفكار بالواقع، إلى علم اجتماع المعرفة، الّذي يهتمّ بالعلاقة بين أنساق الفكر والوقائع الاجتماعيَّة. وبيّن الاعتراضات الموجّهة لهذا العلم وناقشها. واعتقد أنَّ هناك موقفًا «نقديًّا انعتاقيًّا» وآخر «اجتماعيًّا تكنولوجيًّا»، كلّ واحد منهما يكمل الآخر. وتبنّى صورتان مُتناقضتان للمجتمع: صورة المجتمع بوصفه كيانًا مُتماسكًا يكاد يكون ساكنًا، وصورة جدليَّة مبنيَّة على الصِّراع.

رأى أنّه للتَّوصُّل إلى البُعْد الإبستمولوجيّ (المعرفيّ) على الدَّارس أن يطرح مجموعةً من الأسئلة تدور حول ثلاثة محاور: علاقة الإنسان بالطَّبيعة (المادَّة): هل الإنسان موجود مادّيّ محض، أم أنّه يتميّز بأبعادٍ أخرى لا تخضع لعالم الطّبيعة (المادَّة)؟ والهدف من الوجود: هل هناك هدف من وجود الإنسان في الكون؟ ما المبدأ الواحد في الكون الّذي يمنحه هدفه وتماسكه ويضفي عليه المعنى، وهل هو كامن (حال) فيه أم متجاوز له؟ ومشكلة المعياريَّة: هل يستمدُّ الإنسان معياريَّته من عقله المادِّيّ، أم من أسلافه، أم من جسده، أم من الطَّبيعة (المادّة)، أم من قوى مُتجاوزة لحركة المادَّة؟

تناول تعريفات مصطلح الأيديولوجيَّة، والتي منها: إنّها نظام الأفكار المُتداخلة الَّتي تؤمن بها جماعة مُعيّنة، أو مجتمع ما، وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعيَّة، والأخلاقيَّة، والدينيَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والنِّظاميَّة، وتُسوّغها في الوقت نفسه. وقد تبنّى تعريفًا مركّبًا، وأضاف عليه مفهوم البناء الفوقيّ (الثّقافيّ

ـ النّفسيّ ـ الفكريّ ـ الرّمزيّ) ومفهوم البناء التّحتيّ (المادّيّ ـ الاقتصاديّ ـ السّياسيّ) بعد تعديله وتحويره.

اعتقد أنَّ الرُّؤية الحقَّة هي الَّتي تحاول أن تصل إلى القانون العام؛ ومِنْ ثَمَّ، إلى القانون الخاص، وتدرك الكلّ دون إهمال الأجزاء، وتأخذ بحسبانها المسافة بين المُدرك والظّاهرة. فعلى سبيل المثال، الصّهيونيَّة هي أيديولوجيَّة استيطانيّة عنصريَّة، وهذا القانون العام الذي يتحكّم فيها، ولكن إدراك الباحث الأمريكيّ الّذي يرفض الأيديولوجيَّة الصّهيونيّة يختلف عن إدراك الفلسطينيّ الّذي يرفضها، على الرّغم من اتِّفاقهم في الأُسُس الفلسفيَّة والسِّياسيَّة للرَّفض. وعليه، فالصّهيونيَّة لها شكلها الخاص أيضًا نتيجة ظروف اجتماعيَّة ـ تاريخيَّة وتتواجد بمستوياتٍ إدراكيّةٍ مختلفة. واعتقد أنّ العقل المادّيَّ السّلبيَّ عقلٌ إمبياليٌّ وعقلٌ تفكيكيٌّ عدميٌّ، لا يلتزم بأيّ مقاييس أخلاقيّة، وينكر الإنسانيَّة المشتركة.

في حديثه عن جدليَّة الموضوعيَّة والذّاتيَّة، اعتقد أنّ هناك الموضوعيَّة المتلقّية السّلبيَّة والموضوعيَّة الاجتهاديَّة التّفسيريَّة الإيجابيَّة. ومن منظور الموضوعيَّة المتلقّية، تسري على العقل القوانين المادّيّة العامّة الّتي تسري على الأشياء، والواقع بسيط، يأخذ شكل ذرّات مُتحرّكة، وعمليّة الإدراك المسبوقة بالقوانين المادِّيَّة، تأخذ شكل الاتّصال البسيط بين صفحة العقل البيضاء والواقع البسيط. ورأى أنَّ الموضوعيّة المُتلقِّية لا تُفرّق بين مادّة البحث، التّجميع الأرشيفيّ، وعمليّة البحث التّحليليَّة.

رأى أنَّ الموضوعيَّة الاجتهاديَّة التّفسيريَّة، ليست نقل الواقع بحذافيره؛ وإنّما إعمال العقل والخيال للرّبط بين التَّفاصيل وتجريد منها أنماطًا مُتكرّرة؛ تساعد على فهم الواقع بطريقةٍ عميقةٍ وشاملةٍ. فعَدَّها منهجًا يحاول رصد الظَّواهر لا بوصفها أجزاءً مُتناثرةً؛ بل بوصفها أجزاءً تتفاعل مع بعضها بعضًا ومع الكلّ الَّتي هي منه. وطرح مصطلح «أكثر تفسيريَّة» محلّ مصطلح «موضوعيّ»، للدّلالة على الأطروحة الَّتي تُفسّر عددًا من المعطيات يفوق العدد الّذي تُفسّره الأطروحات السَّائدة. أمَّا إن كان عدد المُعطيات الَّتي تُفسِّره أقلّ من الأطروحات السَّائدة فهي «أقل تفسيريَّة»، وهو مصطلح استخدمه محلّ «الذّاتيّ».

اعتقدَ أنَّ تحقيق أهداف المنهج التّفسيريّ يكون بتبنّي النّماذج بوصفها أدوات تحليليّة. ورأى أنَّ الأنموذج المعرفيّ التّحليليّ هو صورة مجازيَّة تُعبّر عن جوهر الواقع بوصفه علاقات مُتشابكة، وأنّه يتّسمُ بقدرٍ من الثَّبات والتّجريد لإدراك

الوحـدة الكامنـة وراء التَّنـوُّع والتَّغيُّـر. واعتقـد أنّ «الأنمـوذج الواحـدي» يتّجـه نحـو اختـزال العالـم إلـى عنصر واحـد (مـادّيّ، أو روحـيّ)، أو إلـى عـدّة عناصر بسـيطة. أمَّـا «الأنمـوذج التّحليلـيّ المركّـب» فيـدور فـي إطـار مبـدأ التّعدُّديَّـة السَّـببيَّة، وينطلـق مـن تركيبـة الواقـع الإنسـانيّ والواقـع المـادّيّ، ويعتقـد أنّ المعرفـة، أو الحقيقـة الّتـي يمكـن التَّوصُّـل إليهـا هـي غيـر مُطلقـة.

لخّـص المسـيري مـا جـاء فـي كتـاب الغـرب والعالـم: تاريـخ الحضـارة مـن خـلال موضوعـات للبروفسـور رايلـي، الّـذي حـاول أن يسـتخدم بعـض مقـولات علـم اجتمـاع المعرفـة، وأن ينظـر إلـى التَّاريـخ بوصفِـه أنماطًا وتشـكيلات مُتكاملة، وتنـاول موضوعات وقضايـا، مثـل: نشـأة المـدن فـي الشـرق والغـرب، وظهـور الفرديَّـة فـي العالـم الغربـيّ وغيابهـا النّسـبيّ فـي سـائر أنحـاء العالـم. واعتقـد أنَّ ثقافـات الشُّـعوب وطُـرُق حياتهـا المختلفـة هـي نتيجـة عناصـر حضاريّـة وتاريخيّـة ومادّيّـة مُترابطـة. وحـاول مـن خـلال دراسـة ظواهـر تاريخيّـة إلقـاء الضَّـوء علـى علاقـة الأفـكار بالواقـع الاجتماعـيّ.

فـي ختـام مـا توصّـل إليـه: «إنّ هنـاك مسـافة تفصـل بيـن العلّـة والمعلـول، وبيـن الظَّاهـرة والعناصـر المُكوّنـة لهـا، وبيـن الأنمـوذج الفكـريّ، أو الحضـاريّ والواقـع الإمبريقـي اليومـيّ. ومِـنْ ثَـمَّ، فـإنّ تلـك المسـافة تـؤدّي إلـى تفـرّد الظّواهـر وتمايزهـا، وإلـى أنّ قانـون حركتهـا محكـوم ـ إلـى حـدٍّ كبيـر ـ بمنطقهـا الدَّاخلـيّ، وأنّ الأسـباب قـد تـؤدِّي إلـى نتائـج عكـس المُتوقّـع منهـا إن اختلـف السِّـياق، وأنّ الظّواهـر مُكوّنـة مـن عناصـر موجـودة بالقـوّة، وأخـرى موجـودة بالفعـل، وأنّ تلـك الموجـودة بالقـوّة قابلـة للتَّحقُّـق إن وُجِـدَت الظُّـروف المُلائمـة».